شوبنهاور

١٧٨٨ ـ ١٨٦٠

هذا هو شوبنهاور الذي طبع الفلسفة الألمانية بطابع التشاؤم، فتركها مظلمة قاتمة، يخال الجانح إليها أنه نازل في أنفاق بعضها أقتم من بعض. نشأ نشأته الأولى بهدوء وسكينة، لا يكاد الناظر إلى وجهه النحاسي يتبين أن وراء هذا الوجه خيوطاً سوداء متصلة بقلبه الأسود؛ وقد خانه الجد في أول عهده كما يخون العظماء، فكبا فاستثقل أن ينهض من كبوته، فما زاده ذلك إلا حقداً على الناس ومبالغة في الانتقام منهم. اتخذ رسله إلى الناس الكتب؛ فكان أول كتبه (الجذور الأربعة لمبدأ السبب الأتم)، فخاض كتابه في صفوف الناس فلم يلق إلا فشلاً، لأنه لا يزال خامل الاسم، ولما تزل سحابة الحزن مخيمة على ألمانيا المغزوة المجرحة، فالناس في شغل عن الفلسفة والفلسفة في

شغل عنهم، ولكن شوبنهاور المتشائم لم يثنه ما أصاب كتابه عن مواصلة السعي، فأعد عدته لحدث عظيم يترك وراءه دوياً، فقذف بكتابه (العالم إرادة وتمثيل) وهو خير كتبه، وأكثرها تمثيلاً لشخصيته فيه من فلسفته الشيء الكثير، ومن الشعر الشيء الكثير. . . ولكن ذلك لم يقعد ببعض حاسديه عن أن يحملوا على الكاتب وينالوا منه. فاستهل مطلع الجزء الثاني من كتابه بهذه الأبيات (وهي لغوتي)

(لماذا تنفر منا؟

وترمي بآرائنا. . . .

وترمي بآرائنا. . . .

أنا لا أكتب لأسرك وأبهجك

ولكني أكتب لأعلمك شيئاً)

obeikandl.com

وقد أسلم كتابه إلى المطابع وولي وجهه شطر إيطاليا موطن الفن، دون أن يرتقب ما يتركه كتابه من تأثير، فقضي فيها زهاء عامين يحيا حياة بسيطة، هادئة. ويرود مواطن الآثار متأملا في تلك العظمة الغائرة في تلافيف التراب. وقد كانت له ميول غزيرة للفن؛ وكم متع النفس ـ في حداثته ـ بمباهج الحياة! حتى إذا آب إلى برلين افتتح شعبة خاصة في الجامعة، ولبث شوبنهاور يرتقب عبثاً من يسمع له، أو يأخذ عنه، حتى يئس من نجاحه، وتبرم بمذهب (هيجل) الذي يحتل ذهن الجامعة، وهو ـ عنده ـ مذهب الجنون والمحال، فما أشد مقته لأتباع هذا المذهب، ولليهود ذوي الأثرة، والنساء اللواتي يخرجن الكون من قلق إلى قلق. عاد إلى إيطاليا ليتم دراسته الفنية، ثم أقام في (فرانكفورت) وبعد جهاد خمسة عشر عاماً مشت إليه الشهرة ذليلة بعد صدود، منقادة بعد جموح، ولقي حتفه عام ١٦٠، وهكذا قدر لشوبنهاور أن يصرع

مذهبه الجديد مذهب (هيجل) الذي تقطعت أسبابه، وتفككت روابطه، وشغرت الأفكار من بعده وأصبحت تتقبل أي مذهب كان يبعثه مجدد!

يعتقد شوبنهاور بأنه هو الوارث الحقيقي لتراث (كانت) وأن (فيخت وشيلنغ وهيجل ما هم إلا أطفال فاسدون)، يرى أن كانت نحا بالفلسفة منحى جديداً، وسار بها في منهاج واضح، أما أتباع كانت فقد ذهبوا بالفلسفة مذهباً وعراً لا مأمن فيه لسالكه، وأقحموها في بقاع هي فوق (المحسوس) تتعانق أجزاءها، وتتلاقى أشلاؤها في نقط مظلمة مبهمة. والآن قد آن للفلسفة أن تدرس حقائق الأشياء الموجودة. (وان الطريقة المثلى في تأمل الوجود، والوقوف على أطواره ما يصل بنا إلى بواطن الأشياء، وحقيقة أكناهها الخفية، ويطلعنا على سر ما يكمن وراء كل حادث، لا تسأل الكون من أين أتي؟ وإلى أين يمضي، ولماذا وجد؟ ولكنها في كل لحظة وفي كل

خطرة تود أن تعرف ما هو؟) وهكذا تحول مجرى العلم النظري الذي كان يجري وراء الخيال، وعاد ينقل من التجارب ما سلم بها الاختبار، ويشرح لنا ناموس الوجود حسب وضعه.

يقول شوبنهاور: العالم هو أين تمثيلي وتصويري، وأين الحقيقة التي تصورها احساساتي التي يحولها الفكر إلى معارف.

وشوبنهاور لا يتخطى بهذه الفكرة ما افترضه معلمه (كانت) من قبل. ولكن العالم عنده هو إرادة، هو ميول عمياء أو غريزة قاهرة عند الكائنات، وفاعلية حساسية عند الانسان، ولكنها إرادة متمثلة في كل شيء، هي جهاد عنيف في سبيل الحياة، تسعى لبسط سلطتها وقوتها على ما هو خارج عنها، الإرادة هي الشيء القائم بنفسه الذي لا ينفذ إليه فناء. الحياة هي العمل

وقد يُخيل للبالغ هذه النقطة من فلسفة شوينهور أن صاحبها يريد أن يبشر بالفعالية المستمرة والجهاد المتواصل الذي لابد منه لحي، ولكن شوبنهاور لا يبلغ بك هذه النقطة إلا ليحمل إلى نفسك فكرته المسمومة التي تجعل من الدنيا كهفاً مظلماً، ومعتركاً تتطاحن فيه الإرادات. يصرع بعضها بعضاَ: ألم يصرع أملاً، وأمل مغسول بالدمع يصارع أملً مخضباً بالدم.

الحياة جهاد عنيف. والجهاد العنيف سبب باعث للألم والشقاء. والكائن كلما زاد سمواً ورقياً زاد تألمه وشقاؤه. وذو النظام المتسق أكثر شعوراً بالألم من ذي النظام الناقص المضطرب. أما الشجرة فلا تتألم، فهي غير حساسة. أما رجل العقل ورجل العبقرية فهما أكثر شقاء وألماً ممن خُلقوا محدودي المدارك، ضيقي الآفاق. والحياة ـ مهما تجردت ـ لنا منها حاجات نريد إدراكها، ونريد أن ندركها كاملة، والكمال ظل طارئ لا يثبت، وقد تجر

الحاجات حاجات مثلها مما يجعل الحياة ـ حسب هذا المقياس ـ لا تنطوي إلا على شقاء، فلا ندرك كل ما نتمنى، ولا نعقد عن التمني:

وشوبنهاور إزاء هذه الحالات الغامضة، وجد كماله وراحته في المذهب البوذي الذي يجرد عن النفس الألم لأنه يقصيه عن الاشتغال في الحياة، ويدعوه إلى الفناء المطلق في الوجود، والتأمل في آياته تأملاً ساكناً، خالياً من الرغبة والشعور.

هذا هو شاطئ النجاة القائم التي أوت إليه سفينة شوبنهاور بعد أن طافت في أكناف المحيط أعواماً، وهو مذهب كأن، صاحبه قد استمده من تلك الساحبة السوداء التي غشيت ألمانيا في عقلها وشعرها وفلسفتها. ومن خيبة طويلة رافقته أكثر أيامه وقد وجد الناقدون القائلون بتأثير الوارثة أن شوبنهاور قد اقتبس من أمه الأيم نظراتها

السوداء، وعن أبيه أخذ الإرادة. ومهما كان تأثير هذه الوارثة المتنقلة بعيداً في نفس شوبنهاور، فهو تأثير ضعيف إزاء تلك الموجة التي اكتسحت القطر الألماني جميعاً بما فيه من أدب ومذاهب وشعر وفلسفة وبرغم ما بذله شوبنهاور في إعلاء شأن مذهبه، وإظهار خطره، فقد قسما عليه النقد ووجد في مذهبه خطراً يهدد أماني الإنسانية، ويقتل كل ما حملته معها منذ فجر الخليقة حتى الآن، وأرادوا من شوبنهاور أن تهديه النتيجة التي بلغها في أول مراحله (الحياة هي جهاد عنيف) لا إلى مناصرة الألم القوي، وتثبيت جذروه السامة في قلوب البشرية، بل إلى تخفيف أثقاله الرازحة على الكواهل والغوارب. فيعمل بذلك على إنماء الحياة وتكثيرها، وجعل رسالته رسالة رضاً وابتسام، لا رسالة سخط وامتعاض.

ولكن هب أن شوبنهاور كان فاقداً لروح التفاؤل، فما هو سر انتشار مذهبه الأسود بين الناس، وقد علموا أن

الحيـاة لا تغـدو بمذهبـه إلا متجهمـة قاطبـة. فهـل كـان شـوبنهاور معـبراً عمـا يجـول في صـدور قومـه ويخفـق في قلوبهم، كما كان معبراً عما يختلج في صدره وفي قلبه؟ قد يكون احتمال الاثنتين معاً من أكبر العوامـل الـتي جعلـت مـن شـوبنهاور نبيـاً للتشـاؤم محترمـاً في قومـه، وإن كـان صاحب التشاؤم قريناً لا يقبل صحبته غراب.

لقد كان شوبنهاور وكمن تظلمه غمامة سوداء، كـثيراً هزؤه، نسيج وحده في خلقه. جاءت فلسفته ابنـة طبعـه، يحاول أن يقنع بها نفسه، لا الناس، لأنه يشـعر أن النـاس واجد أكثرهم في الحياة نوراً وسعادة، ولكن نفسه لا تبصر من هذا النور شيئاً.

على أن أسلوبه الفلسفي هـو الـذي أحيـاه، بـرغم أن اعتقاده ـ بالبوذية ـ لم يقم أمره كمـذهب. لأن العقـول لا

تتقبله وإذا تقبلته فلن تفهمه. أما أسلوبه فهو حي يغري ويملأ النفس جلالاً.

فتفكيره فيه جد وصرامة، يغلب المنطق على أقواله حتى في الأشياء البعيدة، يدل استشهاده الكثير على سعة اطلاع، وقد بلغت منه قوة الملاحظة مبلغاً عظيماً، حتى لتأتي الفكرة منه مبنية على خطأ، وتأني أجزاؤها صحيحة سليمة، كأنها البشاعة مبطنة بالجمال؛ وهو فياض الخيال الذي يندمج مع الفكر دون ما نفور. ولعل أعظم ما جاء منه (فكرة الإرادة) التي بان تأثيرها في الأجيال التي عقبت جيل شوبنهاور؛ فما زالت هذه الإرادة تتطور وتنمو حتى أوجدت لنفسها كياناً في العالم الفلسفي والعالم المادي، ولعل (نيتشه) هو أكبر مولود وضعته الإرادة الجبارة بين يدي الحياة.

صفحة من آثار شوبنهاور

(كيف تنعكس صورة العالم الخارجي في عقولنا)

مقطوعة صغيرة وضعها الفيلسوف على لسان جني يميط لنا اللثام عن سر الأشياء.

أمامي شيئان، شيئان ثقيلان منتظمان، ما أجمل النظر إليهما! أحدهما إناء من حجر ثمين مُحلى بعروتين من ذهب، والآخر جسد تام الخلق والمفاصل، هو جسد إنسان، فبعد أن تأملت ظاهرهما كثيراً استأذنت من الجني أن يسمح لي بتأمل باطنهما، فأذن لي فدخلت في الإناء، فلا أدري أية ميول قائمة تتمشى في أجزائه تحت اسم الالتحام والالتئام.

أما الشيء الثاني ويا للغرابة! أني لي أن أحدث بما رأيت، فأساطير الجن يمسي كل ما فيها أخاً للحقيقة، ففي

ذروته العليا ألفيتُ ما يُدعى (رأساً) مظهره الخارجي كمثل كل مظهر، وهو كغيره من الأشياء يسبح في الفضاء ثقيلاً. ماذا وجدت؟ وجدت الكون نفسه مع سعة الفضاء. وجدته يحتوي على كل شيء، فيه سعة الزمان، وفيه يتحرك كل شيء، وخلتُني مع هذا التحول العجيب للأشياء في الزمان والفضاء، إنني في ذهاب وإياب! . . .

- ٢ -

مقطوعة من كتابه (العالم هو إرادة وتمثيل)

قد لا يدخل في دائرة الصدق قولنا: إن الحياة ظاهرها وباطنها صماء مظلمة، هكذا تجري حياة أكثر الناس، طافحة بالقلق والميول النافرة، تمشى في صدر الإنسان حائرة مترجرجة، وصاحبها مستسلم للأحلام بين جدرانها الأربعة حتى يقضي نحبه، ما أشبه الناس

بالساعات التي رُبطت آلاتها فمشت لا تعلم سبب مشيتها وغابة دورتها، وفي كل مرة يولد إنسان.

تدور الساعة لتعيد ـ كرة ثانية وثالثة ـ دورها القديم، مرددة نفس الجملة وذات المقطع بتبدل قليل لا يكاد يُحس كل وجه بشري، وكل حياة بشرية حلم فانٍ مستمد من روح الطبيعة التي لا نهاية لها، ومن إرادة الحياة العتيدة الثابتة ، هي كالثورة أو الخيالة تمر سريعاً، لا ترسمها الحياة على الشاطئ اللانهائي للزمان والفضاء، ولكن تتركها لحظة أو لحظتين تنعم بهذه الإقامة القصيرة، ثم تمحو رسومها، وتذهب بألوانها، مفسحة لغيرها مكانها؛ هذا هو الجانب الذي يبعث على التفكر والتأمل. . . يجب على إرادة الحياة القاسية أن تكافئ كل صورة من هذه الصور الصافية وكل أمنية من هذه الأماني الذاوية، جزاء ما تحملته من آلام عميقة وأوجاع مضنية، وذعر متكرر من الموت الذي تفر النفوس منه إليه.

إن ما يجعل النساء اكثر صبراً من الرجال على الاعتناء بشؤون أطفالنا، هو أنهن يظللن أطفالاً ضيقات العقول، ويلبثن ـ طيلة حياتهن ـ أطفالاً كباراً، لا هن إلى الأطفال، ولا هن إلى الرجال.

لنلاحظ فتاة غانية تلعب وتمرح ـ سحابة نهارها ـ مع طفل صغير، ترقص أمامه وتغني معه، ولنتمثل أي رجل شديد القسوة على إرادته يستطيع أن يضع صنعها، ويقوم بدورها.

في عصرنا هذا تقع عيوننا على كتاب يتخذون الكتابة مهنة، أما قبل هذا العصر فقد كان الكتاب من ذوي الالهام، ولم يكونوا تجاراً، فلبثوا خالدين، ولبثت مقالاتهم ومواعظهم خالدة كالدهر.

إدوارد هرتمان

وجد (شوبنهاور) في (هارتمان) تلميذاً أميناً لتعاليمه، وإن اختلف مزاجهما بعض الاختلاف، فوجه (شوبنهاور) جامد عابس، نافر التقاطيع، تكاد تبرز من وجهه كل علائم التشاؤم متكلمة منتقمة، ووجه (هارتمان) هادئ تطفو عليه من التشاؤم سحابة رقيقة لا غليظة، فهو متشائم مقبول لا يضيق به الناس، ولا يضيق بالناس، ولعل تعريجه الكثير على نوادي النساء مما رقق حسه، ولطف شعوره، ومثل له الحياة العابسة تبسم له من وراء هذه الوجوه الناعمة، والثغور الباسمة.

مال في بدء نشأته إلى العلوم الطبيعية، وبعد تقلب طويل دخل في مدرسة (السلاح) في برلين، ثم وجد أن هذه الصناعة لم تكن لتلائم مزاجه ولا صحته فهجرها، وهو في إحدى رسالاته يقص علينا أن سبب تشاؤمه لا

يرجع إلى ضعف في صحته أو اعتلال في مزاجه، بل يرى أن روحه في الحقيقة روح تفاؤل ورضا، ولكن زوجه كانت تطفو عليها سحابة من التشاؤم والكآبة الخرساء، والعناد في الرأي الذي تذهب إليه.

كان (هارتمان) في الثانية والعشرين من عمره حين أخذ يكتب كتابه (فلسفة اللاشعور).

ولبث في تصنيفه خمس سنين. ما هو هذا اللاشعور؟ إنه الإرادة عند شوبنهاور تظهر كمادة شاملة عامة، أو هي ذات فكرة (هيجل) بعد خروجها من ـ مصنع شوبنهاور ـ مُهمة مغمضة لا تُدرك. ولا يرى القارئ في هذا الكتاب مذهباً جديداً لأنه تغير للمذاهب المتقدمة، ولا بحثاً ناضجاً لأنه عصارة شباب متوقد روحاً وعاطفة. وإنما هو شعلة أضرمتها فتوة تنطوي على علم غزير، فتهوى نفسك أن تتبع آثار المؤلف في ما يعطيك ويلهمك، ولا سيما في تحدثه

عـن (اللاشـعور) في مقامـات العقـل الإنسـاني وحالاتـه النفسية، وفي غرائز الحيوان، في اللغات ومسـائل الـدين، وفي كل حنايا التاريخ وما احتواه، حتـى يأتيـك بالصـورة الأخيرة التي يرى فيها الإنسانية وقد بلغـت نهايتهـا متبعـة من إرادتها، ومن تفكيرهـا، ومـن حياتهـا، وهـي تواقـة مشـتاقة إلى العـدم؛ حيـث كانـت ثـم انتشـلت منـه بغـير إرادتها. وهذه صورة فيها شيء من السمو الشعري بشرط أن يتلقاها الناظر كحلم خالص قذفت به مخيلة خالية. .

وقد أحدث كتابه هذا دويـاً بعيـداً في العـالم الفلسـفي والعـالم الأدبـي، لا لأنـه زاد ـ في ألمانيـا ـ أنصـار الفكـرة التشاؤمية، بل لأن هارتمان وشوبنهاور كانا أول من صرفا الذهن الألماني إلى مواجهة المسائل الفكرة بالفكر، وأعـادا وصل الحلقتين اللتين قطع بينهما مذهب المثل الأعلى الذي سيطر على العقل الألماني طيلة عصر طويل.

إن في كل ألماني مثقف نزعة خاصة بـه تتمشـى في ثنايـا روحه، تريد أن تتحرك وأن تنمو بـذاتها؛ تـرى الفرنسـي يجنح إلى الفلسفة لتساعده على تفهم الحياة، وبعبارة أجلى لتعلمه كيف يعيش! الألماني ـ على الأغلب يـرى فلسـفته حلماً، ولكنه يعتقد أن يفتح عينه. . . وكل ألماني يـتردد في حلمه أو يقظته ـ الى المدينة الكاملة ـ الـتي تحـدث عنهـا شوبنهاور، المدينة المشيدة على ذرى الغمـام، لأن الألمـاني واسع الحلم خصب الخيال، وهناك يُغادر تصوفه الغريـزي المبهم، ويؤوب من تلك المدينة إلى الحيـاة الحقيقيـة، وهـو أشد حماسة وأكثر تأهباً للمعركة التي يشنها في سبيل الحياة

علـى أن هـذا المـذهب، (مـذهب التشـاؤم) قـد لقـي خصوماً ألداء ممن قارعوه الحجـة بالحجـة، ونـازلوه نـزالاً عنيفاً؛ وحق للفلسفة كلها أن تجمع أحزابها وشيعها علـى محاربة (مبدأ خطـر) إذا فشـا هـدم كـل أمـل في البشـرية، وقضي على كل جهادها الطويل. وقد انضوى (المـاديون)

تحت لواء المعارضة، وكان أشهرهم (أوجين دوهريك) الذي وصل إلى هذه الفكرة السامية: (بأن الحياة بمجموعها جميلة، في أفراحها وفي أتراحها، على أن نتناولها كما هي بعُجرها وبجرها، لا نحاول تغيير سنتها، ولا تبديل طبيعتها، ولا نطلب إليها أن تمنحنا مالا تقدر على منحه، لأنها سائرة إلى غايتها التي لا تبالي بغايتنا، وأن في تمردنا على نُظمها شقاءنا، وفي رضانا عن مذهبها نعيمنا .

obeikandl.com